

## الفصل السادس

### الباكفو بين القوة والضعف

١ - يوشيمونى وإصلاح كيوهو :

وبما أن الشوجون السابع إييتسوجو توفى وهو فى الثامنة من عمره كما ذكرنا آنفا فهو بالطبع لم يترك عقبا له وكان آخر شوجون من العصب الأسمى لعشيرة طوكوجاوا مما جعل المسئولون فى الباكفو يستدعون حاكم مقاطعة كيشو وهو من إحدى العائلات الثلاث المتفرعة عن عائلة طوكوجاوا. وكان يدعى طوكوجاوا يوشيمونى وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره، شابا مفتول العضلات فارح الطول (١٨٠ سم) قوى البنية والشخصية فى ذات الوقت، وقد تربى فى بيئة خشنة بعيدا عن مواطن الدعة والرفاهية، وكان دائما قابضا على سيف لا يقل طوله عن ٩٠ سم مما يعنى أنه كان قويا جدا وشجاعا أيضا.

وفى الشتاء وعلى الرغم من البرودة القاسية فى اليابان كان لا يرتدى سوى رداء واحد من القطن، وكان يأكله فى الغالب من الأرز الخشن غير المدروس. كانت حياته مختلفة إلى حد كبير عن حياة الشوجونات الذين من قبله، وعندما جاء يوشيمونى إلى إيدو وجد الأوضاع سيئة بشكل عام وعلى الأخص كانت الأوضاع الاقتصادية غير مرضية على الإطلاق، ولهذا صرح قائلا: «لا بد من استعادة كل الأمور كما كانت أيام الشوجون الأول إيياسو». وبالفعل جاءت خطوات الشوجون الثامن

يوشيمونى الذى تولى الشوجونية فى عام ١٧١٦م (العام الأول من كيهو) مواكبة لهذا التصريح القوى، وقام بإصلاحات عديدة أطلق عليها ثورة كيهو الإصلاحية نسبة إلى التقويم الإمبراطورى الذى حدثت فيه هذه الثورة الإصلاحية الكبرى.

أدت حياة الدعة وسياسة المهادنة التى طبقتها الباكفو منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر إلى أن يركن الساموراي إلى الراحة وقضاء وقتهم فى اللعب واللهو وتركوا التدريبات الشاقة اللازمة للمحارب وأهمها الفروسية والسباحة واستعمال السيوف، وكذلك التدريب على صيد النسور والغزلان والخنازير، وغيرها من التدريبات القتالية التى لا غنى عنها للمحاربين وعلى الأخص هؤلاء الذين كانوا يقومون بحماية وحراسة الشوجون، ولذلك أمر يوشيمونى الساموراي بالتدريب الشاق على هذه الفنون القتالية، بل إنه كان فى بعض الأحيان يدرّبهم بنفسه على ركوب الخيل وكيفية التعامل معه، ثم قام يوشيمونى بعدة إجراءات من أجل تقوية الباكفو وضبط أحوال البلاد ومن أهمها ما يلى:

#### أ - صندوق المقترحات والشكاوى :

فى العام السادس من تولى يوشيمونى الشوجونية أى فى عام ١٧٢١م أسس هذا الحاكم القوى صندوقا للشكاوى ومقترحات الأهالى ووضعه أمام محكمة إيدو العليا، وقصد يوشيمونى من إنشاء هذا الصندوق معرفة آراء المواطنين بطريقة مباشرة فى سياسته، ومن بين الخطابات الكثيرة التى وضعت فى الصندوق لفت نظر الشوجون خطابا مطولا من ساموراي متقاعد يدعى ياماشيتا كوناي Yamashita Konai ومن ضمن المقترحات التى اقترحها هذا الساموراي ما يلى:

١ - يجب عدم الإنفاق إلا فى حدود الضرورة، لأن الإنفاق الزائد عن الحد يؤدى إلى فساد موظفى الباكفو وإدارتها.

٢ - يجب التخفيف من العقوبات وعدم إصدار أحكام بالإعدام بطريقة عشوائية وعدم الإسراف فيها.

٣ - منع الرشاوى والتوسلات التى يضطر المواطنون لأدائها للموظفين العموميين وذلك لإنجاز مصالحهم.

٤ - تقديم المساعدات من أجل إنجاز أعمال البر لتجنب أخطار الفيضانات وكذلك من أجل استصلاح أراضى جديدة إلى جانب تشجيع الفنون القتالية وغيرها من المقترحات التى أخذ ببعضها يوشيمونى وطبقها بالفعل.

ومن المقترحات التى أخذ بها أيضا يوشيمونى اقتراح بإنشاء مركز طبى لعلاج المواطنين مجانا قدمه طبيب يدعى أوجاوا شوسن Ogawa Shosen وبالفعل تم إنشاء هذا المركز الطبى فى عام ١٧٢٢م (٧ من كيوهو) وكان يضم أقساما لأمراض الباطنة والجراحة والرمد، وربما يذكرنا هذا المركز الطبى بمستشفى قلاوون الذى أنشأه السلطان المنصور قلاوون فى أواخر القرن الثالث عشر بمدينة القاهرة لعلاج المواطنين.

ومن المقترحات الهامة التى جاءت أيضا فى خطاب وضعه ساموراى متقاعد وأخذ به الشوجون يوشيمونى ذلك النظام الجديد الخاص بإطفاء الحرائق التى اشتهرت بها مدينة إيدو، وكان هناك آنذاك مثل شعبى يقول إن مدينة إيدو هى مدينة الحرائق والمشاحنات حيث كانت كثافة السكان مرتفعة جدا، وهؤلاء لم يكونوا يستخدمون سوى المساكن الخشبية المتلاصقة فكان إذا حدث حريق يأتى على معظم المساكن

ويدمر ويقتل العديد من الناس، أما المشاحنات فكانت كثيرا ما تحدث بسبب ما عرف عن أهل إيدو من مزاج حاد، ولكن بالطبع هذا المثل لم يعد مطبقا في عصرنا هذا على الإطلاق لاختلاف طبيعة المباني وكذلك لتغير أحوال العباد.

وقد مر بنا ما أحدثه حريق ميركى الرهيب (Meirekinotaika) الذى دمر مدينة إيدو فى عام ١٦٥٧، وكذلك فقد وقعت عدة حرائق كبيرة استمرت من يناير إلى مارس من عام ١٧٢١م (٦ من كيوهو)، وقد أتت هذه الحرائق على ما يقرب من ١٤٣ ألفا من بيوت الساموراي وأهل المدينة وكذلك المعابد، وإذا ما عرفنا أن عدد مساكن أهل إيدو آنذاك كانت مائة وثلاثين ألف مسكن تستطيع أن تدرك مدى كثرة عدد الحرائق التى حدثت فى تلك الفترة التى وافقت العام السادس من تولى يوشيمونى للشوجونية.

على أية حال فقد تم تغيير النظام القديم لإطفاء الحريق، فمن أجل تجنب الحرائق الممتدة فقد تم إنشاء طرق واسعة وأماكن مفتوحة وكذلك تشجيع إنشاء المخازن الحجرية والبعد عن المخازن الخشبية وكذلك تم تأسيس ٤٧ فرقة سميت بالحروف الهجائية اليابانية، وبعد ذلك تم إضافة ست عشرة فرقة أخرى ليصبح عدد الفرق المنوط بها إطفاء حرائق مدينة إيدو ثلاثا وستين فرقة، وفى عام ١٧٣٠م (١٥ من كيوهو) تم توحيد وتقوية هذه الفرق فأصبحت تتكون من عشر فرق كبيرة فقط.

ب - فرمان التقشف :

كما أسلفنا القول بأن يوشيمونى أراد أن يعيد أحوال الباكفو والبلاد بشكل عام كما كانت أيام الشوجون الأول إيباسو، ولذلك أخذ فى التشديد على الساموراي وجعلهم يتركون حياة الترف والدعة، ومن أجل

إصلاح أحوال الاقتصاد أصدر فرمانا بالتقشف والبعد عن الرفاهية التي كان يرفل بها طبقة الأغنياء خلال فترة جنروكو وما قبلها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف استبعد سياسة اللين ومبادئ الكونفوشوسية وعاد إلى السياسة العنيفة والمتشددة التي كانت مطبقة أيام الشوجونية المبكرة.

وكانت حياة الشوجون يوشيموني نفسه خير قدوة لغيره من الدايميوات والهاتوموطو وهي الطبقة العليا من الساموري، وكذلك عامة الشعب لكي يجربوا حياة التقشف وذلك من أجل خفض المصروفات وضم فرمان التقشف المأكّل والمشرب وأدوات الزينة وغير ذلك من مناحى الحياة، فقد حرم هذا فرمان ارتداء الملابس الغالية الأثمان ومن تناول الأطعمة غالية الثمن مثل سمك الشبوط، كذلك حرم هذا فرمان ممارسة الألعاب التي تحمل صبغة الرفاهية، ومنع البنات من استخدام ممسكات الشعر الغالية الثمن أيضا، وإلى جانب ذلك منع المحاربين من امتلاك السيوف والخناجر ذات المقابض الموشاة بالذهب والفضة وغيرها من المعادن النفيسة.

ومن كثرة وقسوة الأوامر بالتقشف أخذ سكان المدينة يتندرون على الشوجون وأوامره بكتابة لافتات ذكروا فيها مثلا يجب أن يكون ذيل الطائر الجبلى قصيرا مثل ذيل الدجاجة وعدم إطلاق اسم السمك الذهبى على سمك الزينة ولكن يجب تسميته بالسمك الفضى، وغير ذلك من النكات التي تتهكم على فرمانات التقشف، فإذا ما اكتشف أتباع الشوجون مثل هذه اللافتات كانوا يحطمونها على الفور ويلعنون من صنعها.

ومن أجل زيادة موارد الباكفو أيضا أمر الشوجون يوشيموني الدايميوات زيادة الضرائب العينية من الأرز التي كانوا يدفعونها

للباكفو، وفي مقابل ذلك خفض الشوجون من فترة المداومة التي كان على الدائميوات وأسرائهم أن يقضوها فى كنف الباكفو بالعاصمة إيدو وجعلها ستة أشهر فقط بدلا من سنة كاملة، وكان نتيجة تطبيق هذا النظام حصول الباكفو على ما يقرب من ١٩٠ ألف جوكو من الأرز، الأمر الذى أنعش اقتصاد الباكفو إلى حد ما وإنقاذها من الإفلاس، ولما كان اهتمام يوشيموتى بالأرز شديدا فقد أطلق عليه شوجون الأرز ولكن تطبيق فرمان النقشف بكل الحزم والقوة أدى أيضا إلى نتائج سلبية، ذلك لأن هذا الأمر منع صنع وتداول بضائع ومأكولات عديدة مما أدى إلى حدوث ركود فى حركة الأموال وسبب خسائر كبيرة للتجار والصناع، وامتد هذا بالتالى إلى عامة الشعب.

### ج - تعديل وتحسين الأوضاع القضائية :

كان لانتعاش التجارة ومعاملاتها خلال الفترة السابقة على شوجونية يوشيمونى واستمرار هذا الانتعاش خلال فترة كيوهو أيضا أثره المباشر فى زيادة المعاملات المالية، ولكن كان لهذه الزيادة أيضا آثار سلبية تمثلت فى عدم وفاء كثير من المديونين بدفع ما عليهم من ديون. الأمر الذى أدى إلى تزايد عدد الشكاوى والقضايا المتعلقة بأمر التجارة والأحوال المالية لدرجة أن ديوان المدينة التابع للباكفو تلقى فى عام ١٧١٨م ستة وثلاثين ألف شكوى احتوت على ٩٠٪ منها على شكاوى تجارية ومالية. وكان معظم المتهمين فى هذه الشكاوى من الساموراى المتقاعدین.

ومن أجل إصلاح هذه الأمور المعقدة أصدرت الباكفو فى عام ١٧١٩م (٤من كيوهو) ما سمي بقانون إنهاء المشاكل بين الطرفين

(Aitaisumashirei) ، وذلك من أجل خفض عدد القضايا بين أطراف المشاكل المالية والتجارية وغيرها.

وفى الحقيقة أن الباكفو كانت قد أصدرت مثل هذا القانون عدة مرات قبل قانون كيهوو السالف ذكره، بل وأصدرت بعده أيضا عدة قوانين مماثلة، ولكن قانون كيهوو يعد أشهر هذه القوانين بخصوص إنهاء الخصومة والنزاع بين الأطراف المتقاضية بعضهم البعض.

وفى عام ١٧٤٢م استطاع أوكا - تاداسوكى Ooka Tadasuke (١٦٧٧م - ١٧٥١م) بأمر من الشوجون يوشيمونى إصدار قانون الإجراءات العام، ويعتبر هذا الكتاب القانونى أول كتاب قانونى بالمعنى الحقيقى يصدر فى عصر إيدو. وقد صدر فى جزءين: الجزء الأول حوى الإجراءات القانونية والشرطية، أما الجزء الثانى فقد احتوى على مائة وثلاث من المواد تتناول إجراءات التقاضى والعقوبات الجنائية وغيرها من العقوبات، ومن أهم المواد التى احتواها هذا القانون الهام هى خفض وتقليل العقوبة التى سميت بالمسئولية المتصلة والتى كانت العقوبة الجنائية تقع على أسرة وأقارب الجانى أيضا، وكذلك قلل هذا القانون من عدد العقوبات التى كان يتم بموجبها تعذيب الجانى، ولكن برغم ذلك فقد شدد هذا القانون من العقوبات التى تقع على من يخرق العلاقة بين السيد والمسود، وذلك بالطبع بسبب المفاهيم الكنفوشوسية التى ترفع من شأن السيد إلى عنان السماء، فكان من يقوم بجرح لسيده يلقى عقوبة الإعدام عقابا له، كذلك عوقب بالإعدام من سرق أكثر من عشرة ريو من الذهب أى أقل قليلا من أربعين جراما، وهذا بالطبع عقاب رادع وشنيع فى ذات الوقت.

وعلى الرغم من التناقضات والأحكام غير المنطقية التي جاءت بهذا القانون إلا أن هذا القانون وضع مقاييس معينة تيسر عليها العقوبات ولم تأت على هوى الشوجون أو الدايميو، فكما رأينا في حادثة سامورى أكو أو الأوفياء التي تحدثنا عنها بالفصل السابق وكذلك فى العقوبات التي كانت تصدر فى حق من يخالف أمر العطف والاهتمام بالحيوانات وخاصة الكلاب الذى أصدره الشوجون غريب الأطوار تسونايوشى ، فقد كانت هذه العقوبات تصدر على هوى الشوجون أو المستشارين ولم يكن هناك مقياس أو قانون موحد ينظم هذه العقوبات.

وهكذا نجد أن يوشيمونى وثورته الإصلاحية اعتمدا على أشخاص ذوى خبرة وقدرات عالية ، وكذلك فقد جاءت سياسته لتكون مقنعة لعامة الشعب، وكان هذا القانون السابق ذكره أحد هذه السياسات.

#### د - الشوجون المحب لكل جديد :

وشىء آخر ميز هذا الشوجون ذى الرؤية البعيدة الثاقبة فقد أحب كل شىء جديد نافع لثورته الإصلاحية ولبلاده، فقد طلب من الوكالة التجارية الهولندية - والتي كان مسموح لها من دون الجنسيات الأوربية الأخرى التعامل التجارى مع اليابان - أن تمدّه بتلسكوبات وساعات وكذلك بالكتب العلمية المتخصصة ، هذا إلى جانب الغريب من الحيوانات والنباتات غير الموجودة باليابان وخاصة الحصان العربى والفيل ، وكان طلبه للحصان العربى منطقيا وذلك لتحسين سلالة الخيول اليابانية والتي كان لا غنى عنها فى الحروب وفى مختلف المناسبات اليابانية، وفى خلال عشر سنوات استطاع استيراد ثلاثين حصانا عربيا.

وهكذا وكما ذكرنا لم يكن حرص يوشيمونى لاقتناء الأشياء الجديدة من أجل الهواية وحب الجديد فقط ولكن لمنفعتها، وكذلك لاستعمالها استعمالا فعليا وليس لمجرد الزينة، ومن ثم انتقلت هذه الروح الإيجابية إلى كل نواحي ثورة يوشيمونى الإصلاحية، والدليل على ذلك أنه سمح للكتب الغربية بالدخول لليابان وقراءتها طالما لا تتحدث عن المسيحية التى كانت ممنوعة ومحرمة فى اليابان آنذاك، وبذلك استطاع اليابانيون الإطلاع على الكتب العلمية الغربية والاستفادة من العلوم الغربية المتقدمة، ومن أجل ذلك أمر يوشيمونى أستاذ العلوم الهولندية أوكى كونيو Aoki Konyo (١٦٩٨م - ١٧٦٩م) بتأليف كتاب لتعليم اللغة الهولندية، ثم أصبحت كتابات كونيو البداية الفعلية للعلوم الهولندية فى اليابان، ولذلك فهو يعتبر رائدا للعلوم الغربية فى اليابان ومن شغف يوشيمونى بالعلوم الفلكية فقد أنشأ فى منطقة كاندا بمدينة إيدو عاصمة الباكفو مرصدا فلكيا، بل إنه كان يرصد بنفسه الكواكب، كذلك قام أستاذ العلوم الهولندية أوكى كونيو بتشجيع من الشوجون يوشيمونى بتجربة ناجحة لزراعة البطاطا فى مزرعة كو إيشيكاوا للأعشاب، ولم تكن البطاطا آنذاك معروفة فى اليابان إلا فى جزء صغير فى جنوب البلاد، وكان هدف هذه التجربة استخدام البطاطا كمحصول منقذ من مخاطر المجاعة خاصة بعد التجربة المريرة التى مرت بها البلاد بعد مجاعة كيوهو الرهيبة التى سوف يأتى الحديث عنها فيما بعد، كذلك قام يوشيمونى بزراعة محاصيل الرفاهية مثل السكر والجزر الكورى وغيرهما.

وبرغم السياسة الإصلاحية التى اتخذها يوشيمونى فى شتى المجالات

تقريبا سواء كانت سياسية أو قانونية أو علمية أو حتى اجتماعية أثرت جميعها في شكل الحياة للمواطن، إلا أن المجاعة الكبرى التي حدثت في عام ١٧٣٢م (١٧ من كيوهو) والثورات التي قام بها سكان المدينة والفلاحين جراء هذه المجاعة والتي وصل عددها إلى تسعين هوجه وإجراءات التقشف التي قام بها يوشيموني في فترة كيوهو لم تجعل الأمور تسير على هوى يوشيموني ومعاونه من رجال الباكفو.

أما مجاعة كيوهو فتعد من المجاعات الكبرى التي ذاقت مرارتها اليابان آنذاك، فقد تحدثنا عن أثر الكساد الرهيب الذي أصاب محصول الأرز بسبب البرودة الشديدة وهجوم جحافل الجراد على حقول الأرز مما أدى إلى نقصان شديد في إنتاج الأرز وهذا بالطبع أدى إلى ارتفاع سعر الأرز إلى عنان السماء، وبالذات في المدن الثلاث الكبرى يبدو وكيوطو وأوساكا، فزاد عدد المنتحرين والشحاذين، ولم تقف الباكفو مكتوفة الأيدي وحاولت إنقاذ ما يمكن إنقاذه فقامت بإمداد المواطنين بالأرز المطهى وغير ذلك من الوسائل إلا أنه لضخامة المجاعة وعدد المحتاجين للطعام ذهبت جهود الباكفو أدرج الرياح، وجراء هذه المجاعة وما تبعها من أهوال قام فقراء مدينة إيدو بأحداث هوجة كبيرة هاجموا على أثرها محال الأرز ومكاتب الرهونات التي تقرض المواطنين وكان ذلك في العام التالى للمجاعة أى في عام ١٧٣٣م (١٨ من كيوهو)، وكان أكثر الأماكن التي هاجمها الغاضبون شهرة منزل تاجر جملة للأرز يُدعى تاكاما دنبي Takama Denbee، ووصل عدد هؤلاء المهاجمين إلى أكثر من ألف شخص قاموا بتحطيم المنزل بل إنهم قاموا بإلقاء أثاث البيت في النهر القريب من بيت التاجر.

وقد قام هؤلاء الغاضبون بفعلتهم هذه لاعتقادهم أن التاجر دنبي هذا

وهو من التجار الذين يتعاملون مع الباكفو اشترى كميات كبيرة من الأرز وقام بتخزينها من أجل رفع سعر الأرز.

على أية حال أسفرت هذه المجاعة الرهيبة على ضحايا كثيرين وصل عددهم إلى أكثر من عشرة آلاف متوفى، ونفوق ما يزيد على خمسة عشر ألف رأس من البقر والخيول، فكانت بحق من كبرى المجاعات التي طالما عانت منها اليابان طوال عصر إيدو.

وبعد مجهود مضني وإنجازات عديدة تنازل الشوجون الثامن يوشيموني بمحض إرادته عن منصب الشوجونية لابنه البكر إيبي شيجي في عام ١٧٤٥م أي بعد حوالي ثلاثين عاما في هذا المنصب الرفيع، ثم انتقل يوشيموني إلى القصر الغربي (Nishinomaru) وتوفى في عام ١٧٥١م عن عمر يناهز الثمانية والستين من عمره.

## ٢ - عصر تانوما :

بعد ترك يوشيموني للشوجونية تولى ابنه الأكبر إيبي شيجي Ieshige (١٧١١ - ١٧٦١م) المنصب ولكن لم يكن إيبي شيجي خيرا خلف لخير سلف، لم يكن يهيمه سوى اللهو واللعب وترك كل أمور الباكفو لمستشاره أوأوكا تاداميتسو Tadimitsu Ooka (١٧٠٩م - ١٧٦٠م) الذي كان الوحيد الذي استطاع فهم كلامه الذي كان غير مفهوم، وفي زمن هذا الشوجون التاسع زادت أحوال الباكفو الاقتصادية سوءا.

وفي عام ١٧٦٠م تولى ابن إيبي شجي الشوجونية ليصبح الشوجون العاشر وكان يدعى إيبهارو Ieharu (١٧٠٩م - ١٧٦٠م) وكان هذا الشوجون قصير البال، غير مهتم على الإطلاق بالأمور السياسية وتركها في يد مستشاره تانوما أوكي تسوجو Tanuma Okitsugu (١٧١٩م - ١٧٨٨م)

الذى أدار أمور البلاد كما يريد وعاونه ابنه أوكى طومو Okitomo (١٧٤٩م - ١٧٨٤م) الذى قُتِلَ على يد غريم له من الساموراي عام ١٧٨٤م (٤ من تمى) Temei .

وقد خطط تانوما ومعه ابنه أوكى طومو من أجل إصلاح اقتصاد الباكفو المتدهور. ولكنه أدرك منذ البداية أنه لا طائل من الاعتماد على فرض ضرائب عينيه (Nengu) جديدة على الفلاحين لإدراكه أن هذا الضرع قد جف من كثرة ما فرض عليه من ضرائب ومما كان يجعل الفلاحين يقومون بثورات وهوجات ضد الباكفو ووكلائها من حكام الأقاليم ولذلك فقد وجد تانوما ضالته فى كبار التجار وخاصة تجار أوساكا.

ولكن قبل الحديث بالتفصيل عن طريقة إصلاح تانوما لاقتصاد الباكفو يحسن الحديث عن كيفية وصول تانوما إلى مركز يؤهله لإدارة شئون البلاد دون أن ينازعه منازع. بل إنه استطاع ذلك بدون مساعدة من أحد. فقد افتقد تانوما للعائلة ذات الموقع الاجتماعى الرفيع وافتقد أيضا المال. فقد كان والده محاربا من الطبقة الأدنى (Ashigaru) من نفس المقاطعة التى أتى منها الشوجون العظيم يوشيمونى. ثم أتى مع هذا الشوجون الذى رفع من شأنه وجعله محاربا من فئة الهاطوموطو وهى الفئة المتميزة والأعلى بين الساموراي. وبرغم ذلك استطاع الابن أوكى تسوجو أن يترقى إلى المراتب الأعلى بعد سنوات قليلة فأصبح يتقلد وظيفة هامة فى الباكفو هى المداوم للمستشار أثناء ساعات الليل. وذلك لأن صاحبها يمكنه ساعرا فى الغرفة التالية لغرفة الشوجون. وفى سن التاسعة والثلاثين من عمره أصبح ممن يمتلكون عشرة آلاف جوكو من الأرز (الجوكوت ١٨٠ لترا) ثم سرعان ما أصبح داييميو لمقاطعة ساجارا (جزء من محافظة شيزو أوكا).

وإذا كان لقدرات تانوما بعض الأسباب لهذا الترقى، فإنه لا يمكن إغفال أسباب أخرى غير شريفة كان لها أثرها في هذا الارتفاع السريع لأوكيتسوجو، فمثلاً كان يعمل على تزويج أبنائه وأتباعه من بنات وأبناء رجال السلطة، وكذلك كان يتلاعب بحريم الشوجون عن طريق إهداء نسائه الكثير من الهدايا وكان أغلبها ذهباً، وأصبحت الرشاوى هي الوسيلة الأساسية التي يتحرك بها تانوما فهو يعطى الكبار لينال رضاهم ويسهل أموره، وكذلك يأخذ ممن هم أقل مكانة ليلبى طلباتهم، فكان صغار الساموراي يدفعون له للحصول على وظائف في الباكفو، وكان التجار يدفعون له أيضاً طمعاً في تصاريح احتكار سلع بعينها وهكذا أصبحت الرشاوى هي التي تحرك كل شيء تقريباً لكل من يتعاملون مع أوكيتسوجو.

ولم يتلق أوكيتسوجو رشاوى من أجل إنهاء الأعمال الصغيرة من مثل إيجاد وظائف أو تخصيص تصاريح لسلع معينة فقط بل إنه تلقى رشاوى من رجال أعمال وتجار كبار جداً خاصة من أوساكا لإنهاء أعمال كبرى مثل استصلاح وردم برك وبحيرات ضخمة مثل بركتي إينبا وتجا Inba - Tega الواقعتين في شمال وشمال غرب محافظة تشيبا، وكانت هناك عدة محاولات ردم هاتين البركتين وذلك في عصر يوشيموني وتانوما إلا إنها فشلت جميعاً بسبب الفيضانات أو بسبب انهيار نظام تانوما أوكيتسو وأخيراً تم ردم نصف بركة إينبا بعد الحرب العالمية الثانية وكانت مساحتها في الأصل ٤٧ كم<sup>٢</sup>، وتم أيضاً ردم حوالي ٧,٣ كم<sup>٢</sup> من مساحة بركة تجا التي كانت مساحتها في الأصل تصل إلى ١٠ كم<sup>٢</sup>.

وقد أُوهم تانوما أوكيتسو جو نفسه بأن الرشاوى العديدة التى كان يتلقاها من التجار والساموراي وغيرهم هى فى مصلحة سيده الشوجون ، ولكن فى الحقيقة كان هذا الفساد يستدعى فسادا آخر، والرشاوى تستدعى رشاوى أخرى حتى سميت سياسة تانوما بسياسة الرشاوى ، وقد نتج عن هذه السياسة الفاسدة علاقة فاسدة أيضا بين موظفى الباكفو وبين العديد من التجار، مما أدى إلى حدوث فوضى فى سياسة البلاد. ووسط هذه الأجواء الفاسدة ارتفعت مكانة تانوما أوكيتسو جو فى الباكفو من مجرد الشخص المقرب من الشوجون (Sobayōnin) إلى مركز المستشار الأكبر (Rōjū) وسرعان ما تجاهل من سبقوه من مستشارين بل وقبض على كل السلطات بمفرده، وهكذا تم تأسيس ما أطلق عليه عصر تانوما فى التاريخ اليابانى.

كان أكثر المشكلات صعوبة أمام تانوما هى كيفية إصلاح اقتصاد الباكفو المتدهور، وقد كان الاعتماد على الضرائب العينية هو الوسيلة الأساسية من أجل هذا الإصلاح فى عصر يوشيمونى ولم يتغير الحال فى عصر الشوجون إييشيجى والعاشر إبيهارو، ولكن كان القلق يعترى تانوما إذا ما زاد الضغط على الفلاحين أكثر من ذلك فيجعلهم يقومون بثورات وهوجات لا تحتمل الباكفو تداعياتها، وكذلك لم يكن من المستطاع الاعتماد على سياسة التقشف لما لها من تداعياتها السيئة أيضا، وهنا وجد تانوما ضالته فى التجارة وفى التجار لأن أرباحها وأرباحهم كانت كبيرة.

قام تانوما بإنشاء روابط وطوائف للتجار على اختلاف نشاطهم، فجعل لتجار النحاس رابطة ولتجار البرونز رابطة ولتجار الجزر وكان

من السلع الرفاهية أيضا رابطة وجعل السلع التي في أيدي هؤلاء التجار سلع احتكارية يأتي عن طريقها ربح كبير للباكفو، كذلك أنشأ بما عرف بروابط الأسهم والتي عن طريقها استطاع التحكم في تجار المدن والريف على السواء، ثم فرض على هؤلاء التجار نوعين من الضرائب، الأولى تسمى ضريبة الشكر (Myōgakin) ومغادها أن التجار يدفعون هذه الضريبة للتعبير عن شكرهم للباكفو وللمقاطعة التي يتبعونها وذلك لحمايتهم وإعطائهم الامتيازات التجارية التي تدر عليهم الكثير من الربح، أما الضريبة الثانية فهي الضريبة المتنوعة (Unjō) والتي كانت تفرض على مجالات شتى من التجارة.

وبما أن ميناء ناجاساكي كان الميناء الذي يكاد يكون الوحيد الذي تمارس فيه التجارة الخارجية على نحو كبير، فقد قام تانوما باحتكار السلع الهامة التي يتم تداولها في هذا الميناء الكبير وأهمها النحاس والحديد والبرونز والجزر الكورى وحجر الشبه وغيرها، ومن أجل الحصول على أكبر ربح ممكن من التجارة في هذه السلع فقد تم تحديد الروابط التجارية وتجار الجملة الذين يتعاملون مع هذه السلع.

وكما ذكرنا آنفا حاول تانوما استصلاح وردم العديد من البحيرات والبرك من أجل إنشاء حقول واسعة للأرز وذلك لزيادة موارد الباكفو من الضرائب العينية وخطط كذلك لإنشاء قناة مائية ضخمة تربط بين نهر تونيجاوا الذى يعد أحد أطول أنهار اليابان والذي يصل طوله إلى ٣٢٢ كيلو مترا، ويمر في ثلاث محافظات كبيرة هي نيباجاتا وناجانو وجونما حتى يصل إلى مدينة إيدو، وكان يهدف من وراء ذلك أيضا تجنب مخاطر فيضان هذا النهر الكبير، ولكن حدث في عام ١٧٨٦م

اندفاع رهيب للمياه تحطمت على إثره التحصينات التي لم يكن قد مر عام على إنشاءها فأل المشروع إلى الفشل وبانتهاء نظام تانونا في نفس العام لم يكتمل هذا المشروع الذي كان من الممكن أن يكون مفيدا جدا للزراعة ولمدينة إيدو.

وإلى جانب ذلك عمل تانوما على تنمية جزيرة إيزوتشي (هوكايدو) خاصة أن هذه الجزيرة كانت غنية بالموارد البحرية الهامة التي كانت تصدر عن طريق ميناء ناجاساكي ، وأيضا خطط تانوما من خلال تنمية هذه الجزيرة إلى تنمية التجارة الخارجية مع روسيا، وقد أرسل تانوما عدة مجموعات استكشافية لجزيرة إيزوتشي، وكان الهدف الآخر لتانوما من وراء ذلك إرسال سبعين ألفا من المهاجرين إليها والقيام باستصلاح الحقول وخاصة حقوق الأرز ولكن هذا الحلم أيضا راح أدراج الرياح بسبب سقوط نظام تانوما.

ولكن على الجانب الآخر فقد وجدت سياسة تانوما الإيجابية آثارا فعلية في التجارة الخارجية في ميناء ناجاساكي حيث زادت بشكل واضح الصادرات من النحاس والموارد البحرية بعد أن كانت هذه المواد تستورد من الخارج وأصبح المؤشر لصالح الصادرات حتى نهاية عصر الباكفو، كذلك ارتفعت توقعات البلاد الأجنبية في إمكانية انفتاح اليابان على العالم نظرا لهذه السياسة الإيجابية من جانب تانوما.

وهكذا نرى أن تانوما مارس دون أن يدري السياسة الميكافيلية المتمثلة في اتخاذ كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل إنعاش اقتصاد البلاد والباكفو على السواء، إلا إننا لو اطلعنا على كم الكوارث التي حلت بالبلاد في فترة ميوا Meiwa (١٧٦٤م - ١٧٧٢م) سوف ندرك

مدى الحظ التعس الذي صادف هذا الرجل ، لدرجة أن اليابانيين كانوا يتندرون على هذه الفترة في شكل بيت من الشعر ويضيفون حرفا آخر للكلمة ميوا لتصبح ميواكو ومعناها مضايقة لكي يُصبح معنى هذه الفترة فترة المضايقات تعبيراً على كثرة الكوارث الطبيعية التي حدثت بها ، ويمكن كذلك إضافة المجاعة التي حدثت في أواخر عصر تانوما وهي مجاعة تسمى Tenmei No Kikin التي حدثت خلال الفترة من عام ١٧٨٢م حتى عام ١٧٨٨م وهذه المجاعة تشكل مع مجاعتي كيوهو وتنبو المجاعات الثلاث الكبرى التي حدثت في عصر إيدو ، والذي زاد الطين بله حدوث الانفجار البركاني بجبل أساما - الموجود في محافظة ناجانو - الذي اتبعه هبوط كبير في درجة الحرارة أثر في المزروعات بدرجة كبيرة فحدثت مجاعة رهيبة أدت إلى حدوث هوجات وسلسلة حوادث من السلب والنهب هددت مستقبل حكام المقاطعات والباكفو على السواء.

وفى الريف زاد عدد الثورات التي كان يقوم بها الفلاحون بسبب زيادة الضرائب العينية وكذلك عدم اهتمام نظام تانوما بهم فى حين كان اهتمامه الأكبر بالتجار والتجارة، ومع تطبيق أعمق لسياسة الاحتكار ارتفعت بشكل واضح أسعار المواد الغذائية وغيرها مما أثر بشكل مباشر على حياة الفلاحين وسكان المدن الذين يعملون بكل جهدهم زاد تدمرهم وزادت ثوراتهم.

على أية حال ومهما بذل تانوما من جهد لإصلاح اقتصاد البلاد فإن اليابانيين إبان هذا العصر لم يشعروا بأية نوع من أنواع السعادة أو الفخر به وأصبح لسان حالهم يتلخص فى مجموعة أبيات شعر كان يطلق عليه

الشعر المجنون أو الضاحك (Kyōka) وهي كالتالى :  
من تقابلهم فى عصر تانوما هم  
المقارون والمصرفون والفنانون الهابطون والصابون  
ومن لاتقابلهم فى عصر تانوما هم  
المحاربون والعلماء والمتفوقون والأوفياء

ونلاحظ هنا مقارنة بين خصائص عصر تانوما وبين خصائص العصر الذى  
سبقه وهو عصر الشوجون العظيم يوشيمونى . فقد تميز يوشيمونى بتقدم  
العلم وتشجيعه وعدم الإسراف . فيما تميز عصر تانوما بالفساد وكثرة  
الرشاوى والمحسوبية كما رأينا من خلال حديثنا عن عصر تانوما .  
ولكن إذا تجاوزنا الشعور الشعبى الذى عادة ما يتسم بالعاطفية  
ويبعد عن الموضوعية إلى حد ما ، فإنه يمكننا أن نلمس بعض الإنجازات  
العلمية والثقافية . فمثلا فى مجال الطب نجد ترجمة لمدخل الجراحة  
تم طبعها فى عصر تانوما .. وقد تم ترجمة هذا الكتاب الهام عن اللغة  
الهولندية ، وبشكل عام فقد شهدت العلوم الهولندية Rangaku تطورا  
ملحوظا فى عصر تانوما . كذلك وجد عالم فذ مثل هيراجا .

لقى جنناى Hiraga Gennai (١٧٢٨م - ١٧٧٩م) - الذى اخترع  
آلة كهربائية تنتج الكهرباء عن طريق الاحتكاك - من تانوما تشجيجا  
خاصاً، فقام بأبحاث نادرة عن المواد المعدنية وكذلك قام بتطوير وتنمية  
مناجم النحاس، وبالطبع كل هذا كان يصب فى تنمية الصناعات التى  
كانت تلقى اهتماما ملحوظا من تانوما.

أما فى النواحي الثقافية فقد شهدت أبحاث اللغة اليابانية  
تقدما واضحا، وكذلك تطورت الأشكال المختلفة من الشعر اليابانى

على يد الساموراي وسكان المدن ، ولم تستثنى الفنون الجميلة من هذا التقدم ، فتم إنجاز اللوحات اليابانية الجميلة والرائعة والتي تسمى نيشيكي أى Nishikie على يد مخترعها الفنان سوزوكى هارونوبو Suzuki Harunobu (١٧٢٥م - ١٧٧٠م) فى عام ١٧٦٥م ، وفى الحقيقة أن كل الأنشطة الثقافية التى ظهرت وتطورت فى عصر تانوما اتسمت بالحرية والحيوية ، وربما يرجع ذلك لهذا القدر الكبير من الحرية والحركة اللذين اتسما بهما عصر تانوما .

توفى تانوما أوكيتسوجو فى عام ١٧٨٨م بعد أن حملت له الأقدار أخبارا سيئة فى أواخر أيامه ، فهاهو ذا ابنه أوكى طومو يُقتل على يد أحد غرمائه وكان يدعى ماساكوطو وكان من محاربي الهاتاموطو وذلك فى عام ١٧٨٤م ، وبعد عامين توفى الشوجون العاشر إيهارو والذى وجد تانوما فى عهده أيامه الذهبية المزدهرة ، وهكذا تدهور الوضع السياسى لتانوما حتى توفى ، ثم استقبلت اليابان الشوجون الحادى عشر طوكوجاوا إينارى Takugau Ienari فى عام ١٧٨٧م وكان فى الخامسة عشرة من عمره ، وفى عهده تم اختيار مستشار جديد هو ماتسودايرا سادا نوبو Matsudaira Sada nobu والذى سوف يكون محورا للحياة السياسية فى المرحلة القادمة .

وبعد تولى ماتسودايرا سادانوبو لمنصب المستشار الأكبر قام على الفور فى عام ١٧٨٧م بمعاينة المستشار السابق له تانوما أوكيتسوجو بأن صادر من أملاكه خمسا وعشرين ألف جوكو من الأرز ، وكذلك منعه لفترة طويلة من تقلد أية وظيفة عامة ، وهكذا أنهى تانوما حياته السياسية بعد سلسلة من الإخفاقات ولم يلبث أن توفى فى عام ١٧٨٨م كما ذكرنا آنفا .

### ٣- سادانوبو الجاد وإصلاح كانسى :

بعد أن توفى الشوجون العاشر إييهارو وسقوط تانوما كان من المتوقع أن يكون تنصيب ماتسودايرا سادا نوبو (١٧٥٨م - ١٨٢٩م) فى منصب المستشار الأكبر سهلا ويسيرا، ولكن هذا لم يحدث، فقد كانت هناك معارضة شديدة له من الجناح المناصر لتانوما من المستشارين الآخرين ، وكان ذلك بالطبع لأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أن سادانوبو النظيف الجاد سوف يكون عثرة كبيرة فى سبيل مصالحهم وامتيازاتهم التى حصلوا عليها أثناء الحكم الفاسد للمستشار السابق تانوما. وإلى جانب ذلك أيضا كانت هناك معارضة ضارية من نساء حريم الباكفو وذلك لأن سياسة سادانوبو كانت تقوم على تخفيض المصروفات بشكل عام ولم يستثنى من ذلك حريم الباكفو فقد قام بتخفيض مصروفاتهم، ولكن هذه المعارضة راحت أدراج الرياح بسبب إصرار سادا نوبو على تطبيق سياسة التقشف التى نالت قطاعات عديدة من الباكفو.

وفى الحقيقة فقد أثبت سادا نوبو من خلال تمنياته المخلصة للباكفو وللمواطنين وكذلك من خلال سياسته الحازمة التى طبقها فيما بعد أنه خير خلف لخير سلف، فهو حفيد الشوجون الثامن يوشيمونى الذى يعد من أعظم الإصلاحيين فى عصر إيدو وهو فى ذات الوقت ابن عم الشوجون العاشر إييهارو.

ففى دعوته للآلهة البوذية التى تجلب السعادة للناس يقول: «أستحلفك بحياة حاكم إيتشو Etshu بأن تجعلى الحصول على الأرز يسيرا وألا يصبح غالى الثمن وأن تجعلى حياة الناس بلا متاعب بل تجعلى هانئة وهادئة، كذلك أدعوك أن تجعلى اقتصاد الباكفو جيدا، وأن تصل

كرامة ونعمة الشوجون إلى قلوب المواطنين، إننى أدعوك يا آلهة السعادة أن تحققي لى هذه الأمنيات والتي فى سبيلها أبذل حياتى بل وحياة زوجتى وأولادى على السواء».

جاءت هذه الأمنيات من قبيل سادانوبو فى أول عيد لرأس السنة بعد أن تولى منصب المستشارية أى إنه كان عاقد العزم على إصلاح حال البلاد بكل ما أوتى له من قوة وعزم وذلك ما سوف نراه من خلال السطور التالية.

فى أول ظهور لسادانوبو كمستشار فى قلعة إيدو معقل الباكفو - لم يكن يرتدى سوى رداء بسيط من القطن ويحمل بيده صندوق الطعام الذى يحوى طعاما رخيصا أيضا ليس به أى شىء من الرفاهية التى يمكن أن تميز طعام مستشار الشوجون. وقد تعهد سادانوبو أن يجعل محمله يسير ببطء حتى يستطيع أكبر عدد من المواطنين أن يتقدموا بشكاواهم المباشرة مما يدل على مدى اهتمامه بشئون العامة من الناس منذ أول عهده بالمستشارية، وفيما بعد حاول سادانوبو أن يقلد ثورة كيوهو التى تحدثنا عنها فى بداية هذا الفصل والتى قام بها جده يوشيمونى وكانت الثورة الإصلاحية التى قام بها سادانوبو تسمى بإصلاح كانسى (Kansei noKaikaku) وذلك لأن الإصلاح حدث فى هذه الفترة التقويمية الخاصة بالتاريخ اليابانى والتى تمتد من عام ١٧٨٧م إلى عام ١٧٩٣م، وهذا الإصلاح يمثل مع إصلاح كيوهو وتنبؤ Tenpō nokaikalai الثلاث إصلاحات الكبرى التى تم إنفاذها فى عصر إيدو.

كان أول إجراء قام به سادانوبو بعد توليته المستشارية أنه عاقب

تانوما كما ذكرنا آنفاً، وكذلك قام بمعاقبة موظفي الباكفو الذين كانوا يتلقون رشاوى، وكان أكثر من تلقوا العقاب موظفي ديوان المالية الذين قاموا بأعمال فساد فقام بتقليص أعمالهم إلى النصف وكذلك حدد إقامتهم في منازلهم لفترة ليست قصيرة، بل إن الأشرار من الموظفين تلقى بعضهم حكماً بالإعدام، وتلقى البعض الآخر حكماً بالنفى إلى الجزر النائية.

وبعد أن تخلص من الفاسدين بدءاً بتاتوما إلى أصغر موظف فاسد في الباكفو التفت بعد ذلك سادانوبو من أجل إصلاح السياسة الاقتصادية للباكفو، وكان أن بدأ بمنع المحاربين من الإسراف وجعلهم يتدربون بجدية على الأساليب القتالية وكذلك شجعهم على تحصيل العلم.

وكخطوة من أجل الإصلاح الاقتصادي ألغى سادانوبو الشكليات في المراسم وخاصة بما يتعلق بدخول العاملين في قلعة إيدو بدءاً من المستشارين الكبار وحتى صغار الموظفين فقد كان المعتاد قبل ذلك أن يدخل المستشارون الكبار ثم من يجيء من بعدهم في المرتبة وهكذا حتى يدخل الموظفون الصغار، فكانت هذه العملية تأخذ وقتاً طويلاً خصوصاً في زمن لم تخترع فيه بعد الساعة، ولذلك قرر سادانوبو أن يكون الدخول إلى القلعة على أثر سماع دقات طبلة الساعة العاشرة صباحاً، على أن يدخل الجميع في وقت واحد وليس تتابعا.

وعمل سادانوبو على تغيير عدة أوضاع رأى أنها غير صحيحة وكان أكثرها وضوحاً أوضاع القرى السيئة مما جعل الكثير من الفلاحين إلى هجرة قراهم للمعيشة بالمدن الكبرى وخاصة مدينة إيدو، وقد كانت المجاعات التي عانها منها الريف السبب الرئيسي، وخاصة مجاعة تنمي الكبرى التي استمرت من العام الثاني من فترة تنمي (١٧٨٢م)

وحتى العام السابع من نفس الفترة (١٧٨٦م) أى خمس سنوات متواصلة من المعاناة أدت إلى نقص فى عدد سكان الريف وصل إلى مليون وأربعمائة ألف نسمة. وفى المقابل زاد عدد سكان مدينة إيدو عدة عشرات من الآلاف. وبالطبع كان هدف هؤلاء النازحين من الأرياف هو أنه يمكنهم إيجاد طعام بالمدينة ينقذهم من الموت جوعا، كذلك كان هدف الحصول على أجور أعلى مما كان الفلاحون والعاملون بالريف يتقاضونها سببا آخر فى هجرة سكان الريف إلى المدن وخاصة إيدو. ومن أجل إيقاف هذه الهجرة الكبيرة من الريف إلى المدن قام سادانوبو بإصدار أمر بعدم خروج الفلاحين من قراهم من أجل العمل بالمدن وكذلك أصدر أمرا بعودة الذين هاجروا بالفعل إلى قراهم مرة أخرى على أن يشجع هؤلاء العائدين بدفع تكاليف السفر والمعيشة لهم إلى جانب إمدادهم بالنقود اللازمة لشراء الأدوات الزراعية لمعاونتهم فى العودة لأعمالهم الفلاحية.

ومن أجل إتاحة حياة أكثر أمانا من ويلات المجاعات التى كثيرا ما كانت تحدث فى عهد إيدو أمر سادانوبو بإنشاء مخازن وصوامع لتخزين الأرز فى الريف. كذلك أمر بتقليل الأعباء التى تقع على كاهل الفلاحين بسبب فرمان السخرة الذى كان يجعل الفلاحين يقومون بأعمال عامة مثل إنشاء الطرق والجسور دون أى مقابل. هذا إلى جانب إقصاء الملتزمين الفاسدين الذين كانوا يتولون بالنيابة عن الباكفو جمع الضرائب العينية من الفلاحين الذين كانوا يقاسون من قسوة هؤلاء الملتزمين.

وقد كان من أكثر مظاهر الفساد وضوحا فى عصر تانوما تلك المرباة التى كان يقوم بها العديد من التجار الأغنياء حيث كانوا ينتهزون معاناة الساموراي وخاصة الهاتاموطو والجوكنين (Gokenin) من ضيق

ذات اليدن فكانوا يحصلون على نصيب هؤلاء الساموراي من رواتبهم من الأرز فى مقابل إقراضهم ، وقد جمع هؤلاء التجار أموالا طائلة من جراء هذه العملية التى كان فيها الكثير من الخسارة للساموراي ، وهنا أصدر المستشار سادانوبو فرمانا يستطيع من خلاله هؤلاء الساموراي المتعثرين التخلص من معظم ديونهم لدى هؤلاء التجار المرابين ، وذلك بإلغاء الديون التى كان قد مر عليها ست سنوات فأكثر ، أما الديون التى مر عليها خمس سنوات فأقل فهذه يمكن ردها على أقساط ، وقد كان هذا فرمان (Kienrei) بمثابة ضربة عنيفة لهؤلاء التجار الذين تكبدوا خسائر فادحة وأصبح فى ذات الوقت وكأنه طوق النجاة للساموراي المتعثرين.

إلا أن هذا فرمان لم يكن له أية آثار إيجابية على الصعيد الشعبى ، فلم تتغير أحوال حياة المواطن العادى قيد أنملة ، ولكن لأن فئة الساموراي بمختلف طبقاتها كانت تمثل شريحة لا يستهان بها من سكان مدينة إيدو ، فقد اعتبر هذا القانون من أهم الإجراءات الاجتماعية التى استطاعت ثورة كانسى الإصلاحية إنجازها ، وليس هناك من شك أن سادانوبو فى إصداره لهذا فرمان كان يقلد جده الشوجون يوشيمونى عندما أصدر قانونا مشابه لهذا فرمان ، ولكن سادانوبو صار أبعد من يوشيمونى فى معاقبته للتجار المرابين.

ومن الإصلاحات الاجتماعية الهامة أيضا التى قام بها سادانوبو من أجل أهل إيدو أنه وفر قدرا لا بأس به من مصادر المدينة المالية لادخارها من أجل الكوارث والأزمات التى يمكن أن تحدث للمدينة ، وعلى الأخص شراء المحاصيل وتخزينها من أجل إنقاذ سكان المدينة من خطر المجاعات.

كذلك رأى سادانوبو أنه من خلال تخفيض الأعباء عن ملاك الأراضي وملاك العقارات يمكن بذلك تخفيض إيجارات الأراضي والبيوت لعامة الشعب، وكان القدر الذي خصصه سادانوبو من هذه الأموال الموفرة هو ٧٠٪ مما تم تخصيصه للتخفيف من الأعباء الملقاة على عاتق المواطنين. ومن الإنجازات الاجتماعية التي سبق بها سادانوبو زمانه بل ربما لا نجدتها في عصرنا الحديث، تلك الأماكن الإيوائية التشغيلية في ذات الوقت لسكنى وتشغيل هؤلاء الذين تضرروا من مجاعة تنمى الرهيبة والتي تحدثنا عنها آنفاً وبرغم مرور ما يزيد على عشر سنوات على هذه المجاعة إلا إنها أبتقت على الكثيرين من الهائمين على وجوههم في الشوارع بلا عمل ولا مأوى، فكان قرار سادانوبو الرائع بإنشاء هذه الأماكن في جزيرة إيشيكاواجيما وقرية تسوكوبا وذلك في عام ١٧٩٠م، وفي هذين المكانين جعل سادانوبو هؤلاء اللاجئين يعملون في مختلف الأعمال مثل النجارة وطحن الأرز وعصر الزيوت والعمل في قمائن الفحم. وأعطاهم سادانوبو أجورا على هذه الأعمال، وجعلهم يوفرون هذه الأموال من أجل استعمالها بعد خروجهم من هذه الأماكن الإيوائية، وبرغم ذلك فقد اعتبر المشردون والذين بلا مأوى هذه الأماكن سجونا لا غير، ولذلك كانوا يرتعشون خوفا عند سماع كلمة «أماكن الإيواء» وذلك ربما لأن الحياة فيها كانت أقرب لحياة السجون أكثر من حياة في أماكن إيواء. وبرغم ذلك فقد زاد عدد الذين سكنوا هذه الأماكن من أقل من مائتي فرد في بداية عهدها إلى بضع مئات عند نهاية عصر إيدو، مما يدل على نجاح هذه الفكرة ويدل أيضا أن عدد الكوارث التي مرت بها البلاد خلال القرن الأخير من عصر إيدو كانت كثيرة.

وهكذا صار سادانوبو على نهج جده الشوجون العظيم يوشيمونى الذى قام بإصلاح كيوهو، ولكن بسبب تطرف سادانوبو فى تنفيذ سياسته التقشفية وإصداره لأوامر التشديد والتقشف ، فقد مل الناس بمختلف طبقاتهم الحياة فى عهده وعلى العكس شعروا بالحنين نحو سياسة سلفه تانوما برغم فسادها ، وذلك لأنها كانت سياسة انفتاحية إباحية وترفيهية فى ذات الوقت ، وقام الناس بنظم أبيات من الشعر الفكاهى التهكمى يقارنون من خلاله بين عهدين ، عهد كان متبسطا يبيح كل شىء مثله تانوما ، وعهد شديد القسوة يمثله سادانوبو، وهنا شبهوا سياسة تشجيع سادانوبو للأدب والفنون القتالية والتي يطلق عليها باليابانية بونبو Bunbu بطنين الناموس والذى يتشابه فى نطقه مع نفس الكلمة السابقة، فكانوا يتبادلون بيت الشعر التالى :

فى هذه الدنيا ليس هناك شىء مزعج مثل الناموس

فإذا قلنا بنوبو (الأدب والقتال) فهذا لا يجعلنا ننام بالليل

مما يعنى أن سياسة سادانوبو القاسية جعلتهم فى قلق وأرق دائمين لدرجة أنها جعلتهم لا يستطيعون النوم ليلا وذلك مثل طنين الناموس. وهناك بيت شعر آخر من الأشعار الفكاهية التى كانت تنتقد السياسة والسياسيين يقول :

السماك لا يستطيع الحياة فى المياه النظيفة الصافية

ولكنه يشترق لتانوما السابق ذى العكارة

ومن خلال هذا البيت يتضح أن اليابانيين كانوا قد سئموا السياسة المثالية النظيفة التى كان سادانوبو يطبقها ، وحيث إنه كان حاكما على مدينة شيرَاو التى تعنى النهر الصافى أو التنظيف قبل أن يصبح

مستشارا، في حين أن سلفه تانوما والذي يتكون اسمه من مقطعين (تا) وتعنى الحقل و(نوما) وتعنى البركة فإن كلا المقطعين يحتويان على معنى الطين والعمارة، ومن هنا جاء بيت الشعر السابق، بمعنى أن سياسة تانوما وإن كان بها الكثير من المساوئ إلا إنها كانت أفضل من سياسة سادانوبو التي سئمتها اليابانيون من كثرة أوامرها التي أتعبتهم. ومع عدم رضا الناس عن سادانوبو وسياسته، كانت علاقته أيضا مع الشوجون الحادى عشر إيينارى قد ساءت، مما أدى إلى الاستقالة من منصبه فى عام ١٧٩٣م (٥ من كانسى) وبذلك فشلت سياسة إصلاح كانسى التي حاول سادانوبو بكل الصدق أن يطبقها، ثم عاد مرة أخرى لمقاطعته القديمة شيراكاوا ليزاول السياسة بها، وفى عام ١٨١٢م اعتزل ماتسودايرا سادانوبو الحياة السياسية تماما ودخل فى عزلة عن العالم ليتفرغ لكتابة مذكراته الشخصية وكتب أخرى عديدة حتى توفى فى عام ١٨٢٩م.

#### ٤- الخطر الروسى :

فى أثناء إصلاح كانسى قام سادانوبو بمعاينة رجل الدولة الحاذق هاياشى شيهى Hayashi Shihei (١٧٣٨م - ١٧٩٣م) وذلك لتأليفه كتاب حربى كان الهدف منه تحذير اليابان من الخطر الروسى، واعتبر الباكفو أن كتاب هاياشى خاض بكثير من التفاصيل فى أسرار البلاد، أما كتاب هاياشى فقد نصح الباكفو بعمل التحصينات البحرية اللازمة لدرء أى خطر يجرىء من البحر، ولأن اليابان دولة تحيطها المياه من كل جانب فلا معنى لتحصين ناجاساكي فقط ولكن لابد من تحصين كل

حدود اليابان البحرية، وعلى الأخص هوكايدو بسبب الخطر الروسي المحقق باليابان كما تصور هاياشى.

ولذلك كانت معاقبة سادانوبو لهياشى سقطة من هذا المستشار الحازم، فقد كان يجب عليه مكافأته على هذا التفكير خاصة أن هاياشى نصح أيضا بتحسين جزيرة هوكايدو القريبة من روسيا، وذلك لتكون خط الدفاع الأول عن اليابان، وقد أثبت هاياشى بهذا التفكير أنه كان بعيد النظر لأبعد حد، وقد تحققت فكرة هاياشى هذه فى عصر ميجى كما ذكرنا فى كتابنا السابق عن هذا العصر.

وبعد عدة أشهر من نشر كتاب هاياشى وقع ما حذر منه هذا الداهية سابق عصره، فقد جاءت سفينة روسية تحمل رسولا من الإمبراطورة الروسية اکتيرينا الثانية (١٧٢٩م - ١٧٩٦م) يدعى لوكسمان Loksman (١٧٦٦م - ١٨٠٣م). وجاء معه على نفس السفينة قبطان يابانى يدعى دايكوكويا كودايو Daikokuya Kodayu (١٧٥١م - ١٨٢٨م) وكان القبطان اليابانى يقود سفينة من إيسى (محافظة ميبى) متجها إلى ايدو، إلا أن التيار والرياح العاتية جرفته بعيدا عن المحيط الهادى وظل تائها لمدة ثمانية أشهر قبل أن يصل إلى جزر أليوشن حيث أنقذه الروس، وبعد عدة سنوات ذهب إلى روسيا حيث تلقى رعاية العالم لاکسمان وعن طريقه استطاع مقابلة الإمبراطورة اکتيرينا وقد حاولت روسيا عن طريق إعادة هؤلاء التائهين فى المحيط إلى اليابان أن تقيم علاقة دبلوماسية مع اليابان، ولذلك طلب عالم الأحياء لاکسمان من زوج ابنته الذى يحمل نفس الاسم (لاکسمان) أن يصطحب كودايو إلى اليابان حاملا الرسالة السابق ذكرها إلى الباكفو، ولكن كودايو عوقب على تلك الطريقة فى

العودة لبلاده بتحديد إقامته فى منزله مدى الحياة، ويمكن أن نعتبر أن مصيره هذا هو أحد مآسى سياسة العزلة التى طبقتها اليابان آنذاك. أما المبعوث الذى أتى بشكل رسمى من الإمبراطورة الروسية فقد طلب ولأول مرة التبادل التجارى مع اليابان، وهذا ما كانت تخشاه الباكفو لأنها كانت تعتبر أية نوع من العلاقات خارج الإطار الذى حددته وغير البلاد الأجنبية التى آثرتها بالتبادل التجارى، وكأنه بداية لدخول الأجنب للبلاد، وهذا مع ملاحظة أن الروس كانوا حتى هذه الرسالة من الإمبراطورة يأتون بالفعل إلى الأراضى اليابانية ويقومون بالتبادل التجارى مع اليابانيين ولكن بشكل غير رسمى.

وانتظرت الباكفو حوالى عام كامل قبل أن ترد على رسالة الإمبراطورة اكنيرينا وجاء الرد كالتالى :

- ١ - يتم استلام اليابانيين التائهين فى البحر فى مدينة نمره فقط.
- ٢ - عدم تسلم خطابات رسمية من الإمبراطورية الروسية.
- ٣ - إذا ما كان هناك رغبة فى التبادل التجارى مع اليابان فيكون ذلك فى ناجاساكي فقط.

وحتى لا يتم إغضاب المبعوث الروسى لما فى ذلك من خطر على اليابان فقد تم تسليمه تصريح بدخول السفن الروسية إلى نجا ساكى. وبذلك انتهت الأزمة الطارئة ولو بشكل مؤقت، وعاد بعد ذلك المبعوث الروسى لأكسمان إلى روسيا مباشرة دون الذهاب إلى نجا ساكى ولكن سرعان ما أتى بعد ذلك بنفس الطريقة، أى مصطحبا معه بعض اليابانيين التائهين فى المحيط والذين تم إنقاذهم بواسطة الروس وكانوا هذه المرة من منطقة سنداى وذلك فى عام ١٨٠٤م: وبعد أربعة أعوام فقط

اقتحمت السفينة الحربية الإنجليزية "فيتون" ميناء ناجاساكي بقصد القبض على سفينة حربية هولندية والتي كانت قد وقعت تحت احتلال نابليون، وقامت هذه السفينة بعمل بعض الأبحاث والقياسات داخل الميناء، وأمرت اليابانيين بإمدادها بالمؤن وبعدها غادرت الميناء، وقد تحمل مدير إدارة ميناء ناجاساكي المسؤولية عن هذا الإخفاق وانتحر بسببه .

هكذا صدق حدس رجل الدولة الحاذق هاياشى شيهي الذى حذر الباكفو من خطر مجيء الأساطيل الأجنبية التى يمكن أن تخترق أراضي اليابان ما لم يكن هناك تحصينات بحرية قوية، وقبل وفاة هاياشى بسنة واحدة أى فى عام ١٨٣٧م وقعت حادثة السفينة الأمريكية موريسون حيث جاءت هذه السفينة إلى ميناء أوراجا الواقع فى محافظة كاناجاوا القريبة من إيدو وذلك بحجة تسليم سبعة من اليابانيين التائهين فى البحر لحكومة الباكفو، وبهدف التبادل التجارى مع اليابان، ولكن الباكفو واجهتها بحزم وأطلقت النيران عليها، وفى نهاية عهد الباكفو جاء القبطان الأمريكى بيرى بسفنه يهدد الباكفو بأشد العواقب إذا لم تفتح موانئها أمام السفن الأمريكية، وهكذا تتابعت حوادث اختراق المياه والموانئ اليابانية على مدى نصف قرن تقريبا بدأت بقدم سفينة لاسمان لكى تؤكد جميعها ما صرح به هاياشى فى كتابه الحربى المهم، والذى تلقى عليه عقابا شديدا من سادانوبو.

ولكن برغم الإهانة التى تلقاها هاياشى بسبب فكره الثاقب فقد أذعن ماتسودايرا لهذا الفكر وقام بالفعل بعمل التحصينات المتاحة له فى مختلف المقاطعات نظرا لاستيعابه مدى خطورة الوضع الدولى لدرجة

أنه قام بنفسه بمتابعة الإنشاءات التحصينية على طول سواحل إيزو  
(محافظة شيزو وأوكا) وسাকা (كيوشو).

\* \* \*